المحاضرة الرابعة في المناهج النقدية ماستر 1، س2 االبنيوية التكوينية (سند نقدي)

إنّ النقد السوسيولوجيّ يقوم في مجمله على مفهوم أفلاطون للمحاكاة وأرسطو، لكن بتلوينات وأشكال جديدة، إذ يظلّ مع ذلك الإطار المرجعيّ لهذا النقد لا يخرج عن نظريّة الانعكاس، إلاّ ليشذّ عليها من جهة وأخرى، فتأتي المفاهيم الجديدة تحيل عليه، وتعطيه أبعادًا أخرى من قبيل التمثيل البنائيّ كما هو عليه في النقد السوسيولوجيّ الجدليّ. إلاّ أنّه مع ذلك فالمفاهيم التي يرتكز عليها هذا الاتّجاه تنحصر في ما يلي:

- يقوم على نوع من العلاقة الجدليّة بين الواقع الاجتماعيّ، والأثر الأدبيّ آخذا بالحسبان عمليّة التأثير والتأثّر.
  يقوم على عدّ التعامل الأدبيّ كنظام اجتماعيّ.

يحدّد العلاقة بين الذاتيّ والموضوعيّ في الرؤية إلى الواقع الأدبيّ ويفتح المجال لأنواع الأدب بأبعاده الاجتماعيّة المختلفة.

تعدّ هذه العناصر أهمّ المنطلقات النظريّة التي ترتكز عليها عمليّة الإنتاج الأدبيّ والإيديولوجيّ كجزء لا يتجزّأ من العمليّة الاجتماعيّة، ولهذا فالمقاربة السوسيولوجيّة تحرص دائمًا على إضفاء البعد الاجتماعيّ على القراءة الشكليّة، أي إضاءة النصّ في إطار المعادلة الاجتماعيّة، والإيديولوجيّة، والجماليّة، وذلك انطلاقًا من عدّ الكتابة مستوى اجتماعيًّا يدور حول"الأدب والحياة، الأدب والمجتمع، الأدب والواقع، الأدب والإنسان الذاتيّ والموضوعيّ، الأدب والتاريخ".

وعلى العموم يمكن القول إنّ النقد السوسيولوجيّ بذل مجهودًا كبيرًا في البحث عن وجود تأثير للحياة الاجتماعيّة في الأثر الأدبيّ. فالعمل الأدبيّ اجتماعيّ بالضرورة، ولا يمكن أن يكون متعاليًا عليه، إلاّ أنّه لا يكون كذلك في عمقه إلاّ بشرط استقلاليّته التي تؤكّد وجود المرجع من دون أن تحاكيه كما هو..

ولعلّ بعض المثبّطات في الجانب السوسيولوجيّ، حدت بـ"غولدمان"، إلى أن يستدرك ما اعترى هذا الاتّجاه من نقص، فحاول بلورة تصوّر أكثر تماسكًا للمادّيّة الجدليّة في مجال

النقد الأدبيّ ضمن ما أسماه بالمنهج البنيويّ التكوينيّ. فإلى أيّ حدّ استطاع هذا المنهج أن يتجاوز هفوات الاتّجاه السوسيولوجيّ؟

حاول "غولدمان" أن يقرّب هذا المنهج الذي يتّسم بالشموليّة من البنيويّة. وهو بذلك لا يتوخّى الكشف عن البنية الأدبيّة فحسب، بل وعن العلاقات البنيويّة بين النصّ الأدبيّ ورؤية العالم والتاريخ نفسه، وعن الكيفيّة التي تتمّ بواسطتها عمليّة تحويل موقف تاريخيّ لمجموعة اجتماعيّة إلى بنية عمل أدبيّ، عن طريق رؤية العالم التي تتبنّاها هذه المجموعة. وإنّ أهمّ ما جاء به هذا المنهج هو معارضته لما كان سائدًا قبل "لوكاتش"، عادًّا العلاقة الجوهريّة بين الحياة الاجتماعيّة والإبداع متعلّقة بالبنى الذهنيّة التي هي مقولات تقوم بتنظيم وعي فئة اجتماعيّة ما، وهذه البنى الذهنيّة هي ظواهر اجتماعيّة، وليست فرديّة.

وأشار "غولدمان" إلى أنّ المنهج البنيويّ التكوينيّ يتباين عن المنهج البنيويّ الشكليّ في تصوّر كلّ منهما للبنية، فالتكوينيّة ترى أنّ البنية ليست كِيانًا مغلقًا، إنّها ذات دلالة وظيفيّة، وغير معزولة عن الذات الفاعلة والتاريخ، أمّا البنيويّة الشكليّة فإنّها تفصل البنية عن الذات، والتاريخ، وعن كلّ البنى الاقتصاديّة والاجتماعيّة. و"غولدمان" يعترف بأهمّيّة وفاعليّة البنيويّة الشكليّة كمنهج، "لكن مأخذه عليها يتمثّل في تعاملها مع الأدب تعاملاً يستمدّ أدواته ومفاهيمه الإجرائيّة من اللسانيّات، ما يؤدّي إلى عدّ النصّ كِيانًا لغويًّا مغلقًا تنعدم علاقته مع البنية الاقتصاديّة والاجتماعيّة".

إن البنيويّة التكوينيّة في تعاملها مع الظاهرة الأدبيّة، تدرس العلاقة بين الحياة الاجتماعيّة، والإبداع الفنّيّ والأدبيّ، وذلك عن طريق تحليل البنى الأدبيّة والبنى الاجتماعيّة، وجاءت لتجاوز ثنائيّة الشكل والمضمون، فأصبح من غير الممكن تصوّر فنّ يكمن في شكل مستقلّ عن المضمون، كما أنّه ليس بالمبتذل إذا ما اقترب من الحياة الواقعيّة، والصراعات الاجتماعيّة. وإنّ وضع هذه الطرائق التي جاءت بها البنيويّة التكوينيّة، يحاول الإحاطة بالنصّ الأدبيّ من جميع جوانبه ليؤكّد ويحقّق نجاعته وصلاحيّته في مقاربة الأعمال الأدبيّة، بحيث استطاع بفضل مفاهيمه ومنهجه أن يكتشف

ما لم يكن معروفًا من خصائص النصّ، فتأكّدت صلاحيّته وخصوصًا في النقد الروائيّ إلى الحدّ الذي أصبح معه عند بعض الباحثين هو المنهج الأنسب لدراسة الأعمال الأدبيّة، لأنّه يتيح ربط العمل الأدبيّ بالمرحلة الاجتماعيّة والتاريخيّة مع تجنّب الأحكام المسبقة التي كرّسها بعض النقّاد الماركسيّين قبل "غولد مان" و"لوكاتش."

بالإضافة إلى ما سبق، يجدر بنا أن نذكر بعض المنطلقات الأساسيّة للبنيويّة التكوينيّة التي تكشف عن فهم عميق للعلاقة بين الفنّ والواقع الاجتماعيّ، وهي التي حصرها "غولدمان" في أربعة مبادئ:

إنّ النتاج الأدبيّ ليس انعكاسًا بسيطًا للوعي الجماعيّ الواقعيّ، ولكنّه يميل دائمًا إلى أن يبلغ درجة عالية من الانسجام، تعبرّ:

1-عن الطموحات التي ينزع إليها وعي الجماعة التي يتحدّث الأديب باسمها. ويمكن تصوّر هذا الوعي كحقيقة موجّهة من أجل حصول الجماعة المذكورة على نوع من التوازن في الواقع الذي تعيش فيه. وهذا يعني أنّ العمل الأدبيّ هو تتويج على مستوى الانسجام لتيّارات عائدة إلى وعي جماعة اجتماعيّة معيّنة، وهو ما يعني أيضًا أنّه إبداع للواقع وتعبير عنه. والوعي الذي تقدّمه الرواية أو العمل الأدبيّ هو رؤية للعالم، مهما بدت عناصر هذه الرؤية مشتّتة على سطح البناء الروائيّ، وذات خيال كثيف ومجرّد. وفي هذا الإطار يقول "غولدمان": "إنّ الكاتب لا يعكس الوعي الجمعيّ، بل على العكس يقدّم بشكل متقن درجة المطابقة البنائيّة التي أدركها بعمق الوعي الجمعيّ نفسه فقط. وهكذا فإنّ العمل يلوّن نشاطًا جمعيًّا عبر الوعي الفرديّ لمبدعه..."11.

2-إنّ العلاقة الموجودة بين الوعي الجماعيّ وبين الأعمال الإبداعيّة الفرديّة الكبيرة على الخصوص، سواء أكانت أدبيّة أم فلسفيّة أم لاهوتيّة، لا تكمن في شكل تطابق تامّ في المستوى، ولكنّها تتجلّى في نوع من الانسجام على مستوى أعلى، أو نوع من التطابق على مستوى البنيات، لأنّ الأعمال الإبداعيّة تبني مضامينها في شكل صياغة مجازيّة تتمايز تمايزًا كبيرًا عن المضمون الواقعيّ للوعي الجماعيّ.

وهذا يعني أنّ العلاقة بين الوعي الجمعيّ، والاجتماعيّ، والإبداعات الفرديّة العظيمة لا تتواجد في أصالة المحتوى الأدبيّ، بل في الانسجام والتماثل بين الأبنية الأدبيّة، والأبنية الذهنيّة العامّة للجماعات الاجتماعيّة، أو للطبقات التي يستطيع الوعي الجمعيّ التعبير عنها في أشكال خياليّة متنوّعة. وهكذا يمكن القول إنّ "غولدمان" حين يدعو إلى الاهتمام بما تفصح عنه جماعة اجتماعيّة محدّدة، يقدّم إلى النقد السوسيولوجيّ منهجًا خصبًا وصارمًا.

3-إنّ النتاج الإبداعيّ الذي يقابل بنية فكريّة لجماعة ما، يمكن أن يكون في بعض الحالات من إبداع فرد ليست له إلاّ علاقة طفيفة مع هذه الجماعة. ومع ذلك فالخاصّيّة الاجتماعيّة لهذا المؤلّف تكمن على الخصوص في أنّ الفرد ليس في مقدوره على الإطلاق أن يضع من تلقاء نفسه بنية فكريّة منسجمة تقابل ما يدعى عادة "رؤية العالم"، فمثل هذه البنية لا يمكنها أن تكون إلاّ من إبداع الجماعة، والفرد يمكنه فقط أن يرتفع بها إلى درجة عالية من الانسجام بتحويلها إلى مستوى الإبداع الخياليّ، أو إلى مستوى الفكر النظريّ. وهذه الإشارة تحاول لفت الانتباه إلى إعادة النظر فيما ساد طويلاً بخصوص العلاقة القائمة بين مضمون العمل الأدبيّ والانتماء الاجتماعيّ للمبدع.

ولعلّ بعض الناقدين الجدليّين الأوائل كانوا يربطون بشكل آليّ بين طبيعة الفكر الذي يتضمّنه العمل الأدبيّ، وطبيعة الانتماء الاجتماعيّ للمبدع. والقول بأنّ كلّ مبدع يعبّر عن فكر الجماعة التي ينحدر منها، حكم ليس عامًّا، فهناك بعض الكتاب الكبار من يتبنى أفكار جماعة لا ينتمي إليها اجتماعيًّا، وكمثال على ذلك "بلزاك"، فقد كان يمتلك وعيًا ذا أبعاد إنسانيّة، ومضامينُ مؤلّفاته تتجاوز وعي الطبقة التي ينتمي إليها، لتعبّر عن قضايا الطبقات الاجتماعيّة الأخرى.

4-إنّ الوعي الجماعيّ ليس حقيقة أوّليّة، ولا هو بحقيقة مستقلّة، إنّه وعي يتكوّن ضمنيًّا من خلال السلوك العامّ للأفراد المساهمين في الحياة الاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة.وهكذا، أسّس هذا الاتّجاه وجهة نظره على المبادئ التي تعدّ الأدب شكلاً من

أشكال التعبير الذي يبرز رؤية متكاملة للعالم، وهذه الرؤية ليست بظاهرة فرديّة، بل هي ظاهرة اجتماعيّة.

إنّ "غولدمان" حاول أن يربط بين الأثر والجماعة، ولكنّه لا يغضّ النظر عن الكاتب ودوره الإبداعيّ، فهو يرى بأنّ بناء الأثر الأدبيّ يعبّر عن شخصيّة الكاتب من ناحية، والجماعة التي ينتمي إليها هذا الكاتب من ناحية أخرى. وعلى الرغم من هذا كلّه، يرى أنّ الجماعة وحدها هي القادرة على إنتاج رؤية متماسكة للعالم، والمبدع يمكنه التعبير عن هذه الرؤية بطريقة معيّنة.

والبنيويّة التكوينيّة في مقاربتها للنصّ الأدبيّ قامت على مجموعة من المفاهيم الأساسيّة أهمّها:

– 1الفهم والتفسير

يعدّ الفهم مرحلة وصفيّة تفكيكيّة تقوم على الاستقراء والملاحظة، ويهدف إلى تحديد بنية دالّة تشمل كلّيّة النصّ، فيحيط بمجمله بدون إضافة أيّ شيء. إنّه مسألة تتعلّق بالتماسك الباطنيّ للنصّ، و"غولدمان" يفترض أن نتناول النصّ حرفيًّا، كلّ النصّ، ولا شيء سوى النصّ، وأن نبحث داخله عن بنية شاملة ذات دلالة ، أي إنّ الفهم عمليّة تقتصر على النصّ الأدبيّ معزولاً عن المؤشّرات الخارجيّة التي لا شكّ في أنّها تؤدّي دورًا تأثيريًّا فيه، وتتوجّه أساسًا إلى الكشف عن توضيح بنائه الداخليّ أو بنيته الدالّة.

أمّا التفسير فمسألة تتعلّق بالبحث في الذات الفرديّة، أو الجماعيّة التي تمتلك البنية الذهنيّة المنتظمة للنتاج الأدبيّ بالنسبة إليها طابعًا وظيفيًّا... ذا دلالة. فهو عمليّة ثانية تنظر إلى العمل الأدبيّ في مستوى آخر خارجيّ، فتربطه ببنية أوسع وأشمل. إلاّ أنّ ما سبق لا يعني دائمًا أنّ الفهم يستبدّ بالبنية الداخليّة للنصوص، والتفسير يقتصر على ما هو خارجيّ عنها، فـ"غولدمان" يشير إلى حقيقتين أساسيّتين ترتبطان بالقوانين الخاصّة بالفهم والتفسير، تمّ الكشف عنهما بفضل أعمال علم الاجتماع البنيويّ التكوينيّ ومجابهتهما للأعمال النفسيّة وهما:

يشير "غولدمان" إلى أنّه يستحيل فصل الفهم عن التفسير حين يتعلّق الأمر بالليبيدو، سواء إبّان فترة البحث، أو بعد الانتهاء منها، لكنّ هذا الفصل يكون ممكنًا في التحليل السوسيولوجيّ، فهما في نظره طريقتان ذهنيّتان غير مختلفتين، بل إنّهما طريقة واحدة، فالفهم – كما أشار – هو الكشف عن بنية دالّة، أمّا التفسير فإنّه يدرج تلك البنية في بنية شاملة مباشرة، ويكفي أن نأخذ البنية الشاملة موضوعًا للدرس حتّى يصبح فهم ما كان مجرّد تفسير، حتّى يجد البحث التفسيريّ نفسه مرغمًا على الاستناد إلى بنية جديدة أكثر اتّساعًا". وما يمكن أن نشير إليه هنا، هو أنّ العلاقة التي تربط الفهم بالتفسير هي علاقة تكامل وترابط، فالفهم أضيق من التفسير، والتفسير يتضمّن الفهم، بل ويتعدّاه.

– 2البنية الدالّة

إنّ البنية الدالّة تقوم بتحقيق هدفين اثنين: يتعلّق الأوّل بفهم الأعمال الأدبيّة من حيث طبيعتها، ثمّ الكشف عن دلالتها، وهذا هدف يبدو أكثر ارتباطًا بعمليّة الفهم، أمّا الثاني فيتعلّق بالحكم على القيم الفلسفيّة، والأدبيّة، والجماليّة. والرواية في إطار التصوّر البنيويّ التكوينيّ تحتوي على بنية دالّة، تقابلها بنية فكريّة خارجيّة هي بنية إحدى رؤى العالم لدى جماعة بشريّة معيّنة. وهذه البنية الدالّة لا يمكن إدراكها إلاّ حين تجاوز المظهر الخارجيّ للعمل الروائيّ، وقد يكون هذا المظهر ذا شكل خرافيّ أسطوريّ، لكنّ دلالته العميقة قد تكشف عن بنية دالّة لها علاقة مع أحد التصوّرات الموجودة عن الواقع، فإنّه على مستوى المحتوى الأدبيّ تكون للمبدع حرّيّة كاملة في التصرّف، والاستفادة من تجاربه الشخصيّة، وذكائه لخلق عالم خياليّ، وهذا العالم هو نفسه البنية السطحيّة حيث يجب تفكيكه بهدف الوصول إلى النظام الفكريّ الذي يحكمه، وهذا النظام هو البنية الدالّة.

مع العلم إنّ منهج "غولدمان" ركّز على البنية انطلاقًا من الوظائف التي تؤديها في العمل الأدبيّ. وأشار (غولدمان) إلى الكيفيّة التي يتوصّل بها لاكتشاف البنية الدالّة، فعلى الباحث – في نظره – لكي يفهم العمل الذي هو بصدد دراسته أن يتقيّد في المقام الأوّل بالبحث عن البنية التي تكاد تشمل كلّيّة النصّ، وذلك استنادًا إلى قاعدة أساسيّة نادرًا ما يحترمها المتخصّصون في الأدب، وهي أنّ على الباحث أن يحيط بمجمل النصّ، وأن لا

يضيف إليه أيّ شيء، وأن يفسر تكوينه. فاستخلاص البنية الدالّة في العمل الأدبيّ عامّة، والرواية خاصّة، لا يكون إلاّ عبر قراءة جزئيّات النصّ في ضوء مجموع النصّ ذاته، مع التركيز على ما له دلالة وظيفيّة أساسيّة في العالم. وقد ترك "غولدمان" مجال البحث عن البنية الدالّة في العمل الروائيّ رهينًا بقدرات الناقد الحدسيّة. ومفهوم البنية الدالّة لا يفترض فقط وحدة الأجزاء ضمن كلية النصّ والعلاقة الداخلية بين العناصر، بل يفترض في نفس الوقت الانتقال من رؤية سكونية إلى رؤية دينامية، أي وحدة النشأة مع الوظيفة.

وألح "غولدمان" على الانسجام بين البنيات، والذي يمكن أن يجد تعبيره عن طريق مضامين خيالية تخالف أشد الاختلاف المحتوى الواقعي والحقيقي للوعي الجمعيّ. وهذا التناسق بين البنيات يخالف التصور السوسيولوجيّ الكلاسيكيّ الذي يقيم علاقة انعكاس ميكانيكيّ بين الوعي الجمعيّ، والعمل الأدبيّ.

3-الوعي القائم والوعي الممكن

إنّ "الوعي" من المفاهيم التي يصعب تحديدها تحديدًا دقيقًا، ورغم ذلك فقد عرّفه "غولدمان" بأنّه "مظهر معيّن لكلّ سلوك بشريّ يستتبع العمل". وإنّ كلمة "مظهر" تفرض وجود ذات عارفة وموضوعًا للمعرفة، وهذه الذات العارفة "ليست لا فردًا معزولاً، ولا جماعة بدون زيادة، بل هي بنية جدّ متغيّرة ينضوي تحتها في آنٍ الفرد، والجماعة، أو عدد معيّن من الجماعات". من هنا يمكن القول إنّ كلّ واقعة اجتماعيّة هي واقعة وعي من بعض جوانبها، وكلّ وعي هو قبل كلّ شيء تمثيل لقطاع معيّن من الواقع على وجه التقريب، وهكذا، فإذا كانت كلّ واقعة اجتماعيّة تستتبع وقائع وعي، فإنّ العنصر البنيويّ الأساسيّ لوقائع الوعي تلك، هو درجة تلاؤمها، أو درجة اللا تلاؤم مع الواقع.

ويميّز "غولدمان" بين نمطين من الوعي: الوعي الواقع والوعي الممكن. والوعي الواقع هو وعي بسيط لا يتوفّر صاحبه على إمكانيّة التأمّل فيه، فيفكّر بالسلوك أكثر ممّا يفكّر بالذهن، أمّا الوعي الممكن فلا يصله الفرد إلاّ عندما يستطيع التأمّل بفضل ثقافته، وخبرته في المعطيات الفكريّة لجماعته، من أجل أن يبني بواسطتها مستوى متبلورًا لمصالح

الجماعة وأهدافها، آنذاك يرفع في ذاته الوعي الواقع إلى مستوى الوعي الممكن. وهذا الوعي هو أساس الوعي القائم الذي يعدّ نتيجة العديد من المعوّقات، والتحريفات التي تعيق تحقيق الوعي الممكن من جراء عناصر الواقع التجريبيّ المتعدّدة.

والنتاج الأدبيّ ومنه الرواية ليس انعكاسًا بسيطًا للوعي الجمعيّ، ولكنّه تعبير راقٍ عن هذا الوعي، بمعنى أنّه لا يرتبط بأفكار عامّة الناس، وإنّما يرتبط بالإيديولوجيا والفكر النظريّ اللذين يصوغهما الأعضاء النابهون للجماعة. من هنا تبرز أهمّيّة الوعي الممكن، إذ بواسطته يمكن تحديد الرؤية بشكل جيّد وخصوصًا في الأعمال الكبرى.

4-رؤيـة العالم

إنّ مفهوم "رؤية العالم" يعدّ من أهمّ العناصر التي تنبني عليها البنيويّة التكوينيّة كما صاغها "غولدمان"، وهذا المفهوم استعمله الكثير من المفكّرين السابقين لـ"غولدمان" أمثال: "ديلثي"، "ياسبرز"، "لوكاتش"، "كارل مانهايم" و"ماكس فيبر". وهؤلاء جميعًا ينتمون إلى فروع العلوم الإنسانيّة المتعدّدة. وتباينت مفاهيم هؤلاء لرؤية العالم، فهذا المفهوم لا يشكّل عند "ديلثي" مفهومًا إجرائيًّا، بل مكوّنًا فعّالاً لما يعانيه الفرد ويعيشه، وبناء على ذلك فهو يبدو من اختصاص علم النفس، فإنّ كلّ كائن يرد على ما يتولّد عن موقفه في المجتمع من مشاكل بواسطة نموذج يبنيه بشكل تدريجيّ، وحينئذٍ لا يبدو التحديد المجتمعيّ إلاّ عاملاً ثانويًّا يضفي صبغة الوحدة على تنوّع النظرات كما هي عند الأفراد.

وما يمكن ملاحظته هو أنّ استعمال مفهوم "رؤية العالم" في الدراسات السابقة لـ"لوكاتش"، و"غولدمان" قد اتّسم بالغموض، ووظّف في غير مجاله في الفلسفة، وعلم النفس، والتاريخ. إلاّ أنّ "جورج لوكاتش" كان إيجابيًّا في استخدامه له، إذ استعمله بكيفيّة دقيقة، وفي مجال النقد الأدبيّ. ويؤكّد هذا ما ذهب إليه "لوسيان غولدمان" حين أشار إلى أنّ المفهوم ليس من أصل جدليّ.

وانطلاقًا ممّا سبق يمكن القول بأنّ رؤية العالم تبدو متعارضة مع مفهوم الرؤية الفرديّة، بمعنى آخر، إنّ هذه الرؤية تبتعد عن أن تكون نسقًا فرديًّا لتتّخذ طابعها الاجتماعيّ التاريخيّ.

من هنا يمكن القول إنّ رؤية العالم تتجاوز ما هو واقع إلى ما هو مستقبليّ، وما دامت الأعمال الروائيّة الكبرى تتميّز بشموليّة الرؤية، فإنّها هي وحدها التي تمتلك "رؤية العالم". هذه الرؤية التي تعدّ في الواقع تعبيرًا كلّيًّا وشموليًّا عن قيم الجماعة وطموحاتها، ومشاعرها التي تؤمن به.